الهولوكوست المعكوس

الفصل الأول

«العين بالعين»

قصة أغرب من الخيال

◆◆◆

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل

محارق اليهود على يد الألمان النازيين قصة استهلكت أطنانا من الأحبار والأوراق والكتب وكل أشكال النشر في كافة أنحاء العالم، حسب جون ساك.. بلغ عدد الكتب التي صدرت في العالم تبحث وتوثق الروايات اليهودية التفصيلية بشأن ما تعرضوا له في المعسكرات النازية فيما يسمى بالهولوكوست ٨٥ ألف كتاب، روايات يستقبلها كثيرون في الغرب كحقيقة لا تقبل الجدل، ومن ينكرها يحاكم في بعض الدول ويحاصر ويضطهد في دول أخرى، أما قصة محارق الألمان على يد يهود (كانوا أشد نازية ربما من معذبيهم) أو وقائع انتقام اليهود من الألمان فليست معروفة تقريبا ومن يتحدث عنها أو يبحثها محاصر ومضطهد وممنوع من مخاطبة القراء بوسائل شتى..

* ٨٥ ألف كتاب توثق الروايات اليهودية التفصيلية عن الهولوكوست والكتاب الوحيد عن انتقامهم من الألمان ممنوع ومحاصر.

* صحيفة يومية ومجلة شهرية وثلاث دور نشر دفعت للمؤلف ٤٠ ألف دولار ثم امتنعت عن النشر.

* إحدى دور النشر الأمريكية طبعت ١٧ ألف نسخة من الكتاب ثم أخفتها دون أن تباع في الأسواق

* عشرون صحيفة وناشر قرأوا كتاب «العين بالعين» وأثنوا عليه لكنهم جميعا رفضوا نشره واعتبره أحدهم كتابا «لا يجرؤ على عرضه أحد».

* اليهود أداروا ١٢٥٥ معسكر اعتقال للألمان المدنيين ضمت رجالا ونساء وصبية وأطفالا رضع أيضا، وهناك ضربوا وجلدوا ثلاثة ملايين ألماني معظمهم

مدنيون وقتلوا تحت التعذيب نحو ٨٠ ألفا منهم.

* في الشهور العشرة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية تولي يهود قيادة معسكرات اعتقال للألمان في بولندا مارسوا فيها التعذيب والقتل بأبشع الصور.

* في معسكر واحد قتل ما يزيد على ١٥٠٠ ألماني وهرب قائده إلى إسرائيل التي رفضت تسليمه إلى القضاء البولندي لمحاكمته.

* مؤلف الكتاب صحفي مخضرم أحد رواد «الصحافة الجديدة» في الولايات المتحدة التي تعتمد على السرد المحايد للقصة الإخبارية وتقديمها من خلال وجهة نظر المشاركين فيها.

* بعد دعوة المؤلف لمحاضرة عن كتابه في متحف الهولوكست التذكاري في واشنطن ألغيت الدعوة فأقام مؤتمرا صحفيا في نادي الصحافة الدولي على نفقته ليحكي قصته.

* في عام ١٩٨٩ زار جون ساك الأرشيف الألماني الاتحادي وعثر على خمس شهادات لألمان كانوا معتقلين في سجن «بولا» والتقى بهم ووجد ثلاثة حراس ممن عملوا معها وزار السجن نفسه.

منذ أكثر من ستين عاما لم يتعرض في الولايات المتحدة كتاب للمنع والقمع بمنتهى العنف مثلما حدث لكتاب «العين بالعين- قصة اليهود الذين انتقموا ردا على الهولوكست» لمؤلفه اليهودي - أيضا- جون ساك.. صحيفة يومية كبرى ومجلة شهرية كبرى وثلاث دور نشر دفعت للمؤلف ٤٠ ألف دولار، ثم امتنعت عن النشر، إحدى دور النشر الثلاث طبعت ١٧ ألف نسخة من الكتاب ثم اختفت النسخ دون أن تباع في الأسواق.

أكثر من عشرين ناشرا قرأوا الكتاب وأثنوا عليه، وكتبوا لمؤلفه تعليقاتهم: إنه «كتاب صادم» و«مثير» و«مدهش» و«فوق العادة»، و«أثار إعجابنا»، لكنهم جميعا

رفضوا نشره.

وأخيرا نشرته دار نشر Basic Books (بيزك بوكس) وقالت عنه مجلة نيوزويك إنه «أشعل جدلا غاضبا»، فكان من أكثر الكتب مبيعا في أوروبا، ولكنه ظل منبوذا في أمريكا، حتى أصبح «الكتاب الذي لا يجرؤ على عرضه أحد».

وقام برنامج «سكستي مينتس» (٦٠ دقيقة) وصحيفة نيويورك تايمز بمراجعة الوقائع التي ذكرها المؤلف جون ساك (المتوفي في ٢٧ مارس ٢٠٠٤ عن ٧٤ عاما) عن: «سعي آلاف من اليهود في أواخر الحرب العالمية الثانية للانتقام مما حدث لهم في الهولوكست».

هؤلاء اليهود أداروا ١٢٥٥ معسكر اعتقال للألمان المدنيين، ضمت رجالا ونساء وصبية وأطفالا رضع أيضا، وهناك ضربوا وجلدوا ثلاثة ملايين ألماني معظمهم مدنيون وقتلوا تحت التعذيب ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألفا منهم.

الشخصيات الحقيقية في كتاب «العين بالعين» يهود من أمثال شلومو موريل الذي قلب الهولوكست رأسا على عقب، فجعل من معسكر اعتقال كان يديره نسخة معكوسة من الهولوكست: الألمان ضحايا يُعَذبون ويُقتلون واليهود هم الجلادون.

الصحفي الأمريكي المخضرم جون ساك صادف ذات يوم معلومة عن تولي يهود قيادة معسكرات اعتقال للألمان في بولندا خلال الشهور العشرة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وأن التعذيب والقتل مورسا فيها بأبشع الصور، ولم يسمح له ضميره بالصمت أمام ما اعتبره حقائق غائبة يساعد الكشف عنها والاعتراف بها على الخروج من «دائرة الكراهية» التي تركت ظلالها على تاريخ اليهود في أوروبا، وبدون ذلك كما يرى ساك لا تستقيم مطالبتهم اليوم للآخرين أيا من كانوا بأن يتخلوا عن الكراهية والتعصب ضدهم.

وخلال بحثه تأكد ساك بأن يهوديا واحدا مسئول عن تعذيب وقتل ١٥٨٠ ألمانيا في معسكر اعتقال واحد وأنه هرب إلى إسرائيل التي رفضت تسليمه إلى القضاء البولندي لمحاكمته على جرائمه ضد الإنسانية، وكذلك رفضت بريطانيا وكندا تسليم آخرين، وصادف الكاتب الأمريكي متاعب كثيرة لكي ينشر بحثه وكتابه كان أخفها رفض النشر والتشكيك في عمله.

من هو جون ساك

جون ساك يعد أحد رواد ما يسمى «بالصحافة الجديدة» في الولايات المتحدة والتي تعتمد على السرد المحايد للقصة الإخبارية وتقديمها من خلال وجهة نظر المشاركين فيها، واشتهر ساك كمراسل عسكري كتب تقارير متميزة من ميادين القتال في كوريا وفيتنام والعراق ويوغوسلافيا وأفغانستان.

ولد في مدينة نيويورك في ٢٤ مارس عام ١٩٣٠، لأب يهودي اسمه جون جاكوب ساك كان يعمل محاسبا لشركة دافيجا للأدوات الرياضية.

أول مقالة تنشر لجون ساك في مجلة إسكواير كان عدد كلماتها ٣٣ ألف كلمة، ومازالت أطول مقالة نشرت في المجلة حتى الآن، كان عنوانها على غلاف أسود تماما «يا إلهي – لقد قتلنا فتاة صغيرة»، وهي تحقيق مطول يتابع وقائع رحلة لسرية مشاة أمريكية منذ تدريبها في فورت ديكس بنيو جيرسي حتى أول معركة لها في فيتنام.

في ذلك الوقت كان ساك يجمع في أسلوب كتابته ما بين التكنيك الأدبي والسرد الواقعي على لسان أبطال القصة الإخبارية فيما اعتبر وقتها «صحافة جديدة»، وقد أعاد ساك نشر وقائع ذلك التحقيق الصحفي عن سرية المشاة في سلسلة كتب «إم»، لينال عنها جائزة من قسم الصحافة في جامعة نيويورك والذي اعتبرها واحدة من أفضل الأعمال الصحفية الأمريكية في القرن العشرين.

بدأ ساك عمله في مهنة الصحافة في الخامسة عشرة من عمره مندوبا صحفيا لجريدة «ماماروينيك ديلي تايمز» في معسكر كشافة سيوني في نيويورك، وبعدها تخرج من جامعة هارفارد حاصلا على درجة البكالوريوس في آداب اللغة الإنجليزية عام ١٩٥١، ثم تطوع للخدمة العسكرية في كوريا، وخلال السنوات الأولى من مهنته العسكرية كتب تقارير صحفية لمجلات أرمي (الجيش) وباسيفيك ستارز وستربيبس وعمل مراسلا لوكالة يونيتد برس ومجلة هاربرز.

وعند عودته إلى أمريكا بدأ ساك في الكتابة الساخرة لمجلة نيويوركر، وعلى مدى ثماني سنوات كتب للمجلة مقالات ساخرة متميزة تداني ما كتبه كتاب ساخرون بارزون مثل س. جي. بيرلمان وجيمس ثيربر، وفي الستينات عمل كاتبا ومعدا ومراسلا خاصا لشبكة سي.بي.إس.نيوز، وعمل مديرا لمكتبها في مدريد وألقى محاضرات في كلية الدراسات العليا بجامعة كولومبيا.

وفي عام ١٩٦٦ انتقل ساك من شبكة سي.بي.إس.نيوز إلى مؤسسة إسكوايز ليعمل بها مراسلا عسكريا، حيث واصل كتابة مقالات متميزة على مدى ٤٥ عاما، لقيت استحسان وإشادة النقاد لالتزامه بعرض الحقائق، إلى جانب استخدامه غير المفرط للتقنيات الأدبية في الكتابة.

غطى ساك الحرب في فيتنام ويوغوسلافيا وأفغانستان والعراق، وكان الصحفي الأمريكي الوحيد تقريبا الذي قام بتغطية جميع الحروب الأمريكية على مدى السنوات الخمسين الماضية، وكانت سلسلة حواراته مع الملازم ويليام إتش. كالاي الذي أدين بقتل مدنيين فيتناميين في ماي لاي قد أثارت معركة قانونية حول الحصانة القانونية وميثاق الشرف الصحفي، وألقى القبض على ساك ووجهت إليه تهم جنائية لرفضه الشهادة ضد كالاي ورفضه تسليم الأشرطة التي سجل عليها الحوارات وتفريغها إلى النيابة العامة، وأخيرا حفظت القضية.

وقد ألف ساك عشرة كتب، وعمل على فترات متقطعة محررا في مجلة بلاي بوي، ومعد برامج في تليفزيون KCBS في لوس أنجليس، وكاتبا للعرض التلفزيوني That's Incredible «أمر لا يصدق»، وتوفي في ٢٧ مارس عام ٢٠٠٤ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين حيث كان يعيش في إيداهو بسبب سرطان نخاع العظام.

قصة أغرب من الخيال

«المتحف التذكاري للهولوكوست في واشنطن يقوم بعمل رائع ولكنني أبغض فيه شيئا واحدا هو أنه لا يتحدث عن القتل الجماعي عندما يكون الفاعل يهوديا»، العبارة السابقة لمؤلف كتاب «العين بالعين» الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٣ ثم توقفت طباعته نهائيا بعد ذلك بأربع سنوات.

الاستماع إلى جون ساك متحدثا أو قراءة كتابته في موضوعه الأثير «انتقام اليهود من الألمان» تشبه إلى حد ما قراءة مغامرات «ألف ليلة وليلة» حيث كل مغامرة تقودك إلى أخرى أكثر إدهاشا، مع فارق بسيط هو أن مغامرات «ألف ليلة وليلة» خيال محض، أما مغامرات ساك فحقائق ذات زمان ومكان محددين، الزمان: النصف الثاني من القرن العشرين والمكان: ولاية كاليفورنيا وبولندا وألمانيا وإسرائيل.. وفارق آخر هو أن رواية ألف ليلة وليلة متاحة في معظم مكتبات العالم في عشرات اللغات، أما كتاب ساك فممنوع من الطبع.. وحتى نسخته الإلكترونية التي وضعها المؤلف قبل وفاته على شبكة الإنترنت لم تعد متاحة لأسباب غامضة.

كان ساك قد تلقى دعوة من مدير معهد الأبحاث التابع لمتحف الهولوكست التذكاري في واشنطن ليتحدث عن قصة مقتل ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف معتقل ألماني على يد قوات الحرس اليهودي عقب المحرقة الأوروبية في الحرب العالمية الثانية، وقبل عقد الندوة بقليل ألغاها مدير المتحف الجديد -وقتها- د.والتر رايش.

وبعد إلغاء الدعوة دفع ساك ٣٠٠ دولار لعقد الندوة نفسها أمام الصحفيين في

نادي الصحافة الدولي في واشنطن في ١٣ فبراير ١٩٩٧، في محاولة منه لمواجهة المنع الرقابي الذي مارسه ضده متحف المحرقة.. هناك حكى ساك قصة كتابه كيف بدأ ومن أين التقط الخيط وما المصاعب التي واجهها.

في أبريل عام ١٩٨٦ التقى ساك في ولاية كاليفورنيا بسكرتيرة في شركة بارامونت في هوليوود، بحكم إقامته هناك، وأثناء الحديث معها علم أنها ابنة ليهودية ناجية من المحرقة وأخبرته السكرتيرة كيف قُتلت جدتها وخالتها وشنق خالها في معسكرات اعتقال النازي في يناير ١٩٤٥.. ومن خلالها تعرف على أمها «لولا بوتاك» التي هربت عندما كان يتم ترحيل السجناء من معسكر إلى آخر لتجنب جيوش الحلفاء القادمة في شتاء ١٩٤٤-١٩٤٥، وعندما استولى الروس على المنطقة التي كانت مختبئة فيها تطوعت لخدمة البوليس السري البولندي في مواجهة الألمان وانتهى بها الحال قائدة لمعسكر اعتقال للسجناء الألمان في جليفيتش ببولندا، وكان هذا المعسكر واحدا من ١٢٥٥ معسكرا أقامتها القوات السوفيتية التي اجتاحت أوروبا عندئذ كما قال جون ساك.

بعد تلك المقابلة مع لولا بوتاك أمضى ساك عامين ونصف العام في إجراء حوارات معها ومع أعضاء آخرين في «الحرس اليهودي» عرفته بهم، وتناول خلالها خبراتهم ومعايشاتهم في المعسكرات البولندية والروسية.

وكانت النتيجة مقالا مدهشا في «مجلة كاليفورنيا» حمل عنوان «انتقام لولا وخلاصها» تحدث فيه ساك عن أول ما خطر ببالها وهو الانتقام، ثم التحول الذي حدث لها بحيث وجدت نفسها في النهاية تعارض حارسا يعمل تحت رئاستها كان يضرب سجينا ألمانيا، فسألت الحارس «لماذا تعذبهم؟ لكي تكون مثلهم!» ومنذ ذلك الحين راحت تحث الحراس على أن يعاملوا السجناء معاملة إنسانية، وقالت لولا «ربما يتعلم اليهود أن كراهيتهم لجيرانهم لن تدمر الجيران فحسب ولكنها

بالتأكيد ستدمر اليهود أنفسهم».. وفاز مقال ساك بجائزة أفضل مقال في مجلة عن ذلك العام.

بعدها وقع ساك اتفاقا مع لولا لتحويل قصتها إلى كتاب عن معسكرات اعتقال الألمان التي أدارها يهود ناجون من الهولوكوست، وبعد محاولات مع عدد من الناشرين وافقت دار نشر «هنري هولت» على الفكرة، ولسوء حظ ساك رفضت لولا والحراس السابقون الذين عرفته بهم السماح باستخدام قصصهم وعندما قال لهم : إن بينهم عقدا هددوه «بالانتقام بل والقتل».

أقلع ساك الذي يتحدث الألمانية بطلاقة عن فكرة التعاون معهم، ولكنه لم يتخل عن فكرة الكتاب، وفي عام ١٩٨٩ زار الأرشيف الألماني الاتحادي الموجود في قلعة على نهر الراين، حيث وجد خمس شهادات لألمان كانوا معتقلين في سجن لولا والتقى بهم ووجد ثلاثة حراس ممن عملوا معها وزار السجن نفسه.

من هناك قاده بحثه إلى عدة دول حيث التقى بشهود آخرين واطلع على آلاف الوثائق وأكد بحثه أن لولا عملت بالفعل مأمورة للسجن وأنها أوقفت بالفعل العنف ضد السجناء.

تراجع لولا عن النشر

يقول ساك «بدأت إجراء المقابلات مع لولا في فندق «إن» بالطريق السابع في لوس أنجليس، وفي المقبرة اليهودية بولاية نيو جيرسي، وفي شارع الشانزليزيه في باريس، واستغرقت المقابلات عامين ونصف العام، استرسلت خلالها في حكي ذكرياتها، وعرفتني باثني عشر شخصا آخر جميعهم يهود ممن كانوا يعرفونها في جلايفتس بالإضافة إلى حراس السجن هناك، وحتى الرجل الذي عينها قائدة للمعسكر».

وكتب مقالة من عشرين صفحة عن انتقام لولا، واطلعت عليها وأبدت إعجابها

بها، ونشرت المقالة في مجلة كاليفورنيا، وجاءت لولا على نفقتها الخاصة إلى واشنطن للترويج للموضوع في الإذاعة الوطنية العامة من أجل بيع القصة دوليا، وأعيدت طباعة المقالة ضمن أفضل مقالات المجلة عام ١٩٨٨، وأصبح لديها عروض لتحويل القصة إلى فيلم، وأعلنت الممثلتان بات ميدلر وسوزان سومرز أنهما تريدان لعب دور شخصية لولا.

وعندئذ أعد ساك اقتراحا لإعداد كتاب عن القصة، على أن يكون «قصة عن فداء وتضحية لولا، وليس قصة للانتقام»، معتزما السفر إلى ألمانيا ليقابل بعض السجناء، وإلى بولندا ليلتقي عددا من حراس السجن، وكان يعتزم أن يكون عنوان الكتاب «لولا» وفي أغسطس ١٩٨٨ أبلغه الناشر هنري هولت في مدينة نيويورك بموافقته على نشر الكتاب، وبدوره أبلغ لولا بذلك، لكنها فاجأته على الهاتف لأول مرة بأنها لا تريد نشر الكتاب، فذكرها بأنهما وقعا عقدا بالفعل، ينص على أن تعطيه «لولا الحق الحصري لتأليف ونشر كتاب عن حياتها».